عودة اللوتس
إلى زهرة المدائن

إهداء

إلى زوجي من بداية اعتقاله واختفاؤه إلى أن فرج الله عنه لأن الأمل بالله مازال موجود والحب الصادق لا يموت بل يأتي دائما باجمل من كنوز الدنيا.

ولدت في مدينة اعزاز بمحافظة حلب. حين نشأت كنا عشرة أبناء؛ أخواتي الثلاث الأكبر متزوجات، وإخوتي الشباب الخمسة، وأنا وأختي. كنت أقضي وقتي في أعمال البيت والتنظيف؛ بيت أهلي كبير حوالي الألف متر وفيه أشجار. وكنا نلعب بالحصى والأحجار وبالحبلة.

كانت أمنيتي أن أدرس. كنت أرى بنات الجيران يذهبن إلى المدرسة، أو بنات أقاربنا من عمري، لكن أهلي رحمهم الله وسامحهم لم يقبلوا. لم يرسلونا إلى المدرسة بسبب خوفهم علينا. في ذلك الوقت كانوا يخافون على البنات كثيراً. أرسلوا إخوتي الصبيان لكن أنا لم أذهب ولا لأي صف. لا أعرف حتى شكل المدرسة.

وافق أبي أن تذهب أختي الصغيرة إلى المدرسة بسبب شدة إصراري ورجائي، فصرت أستيقظ باكراً بدلاً عن أمي وألبس أختي وأربط شعرها. أيامها كانوا يلبسون الفولار البرتقالي والصدرية البيج. كنت فرحة كثيراً. كان عمري حوالي العشر سنوات وبيني وبينها ست سنوات تقريباً. كنت أساعدها في حلّ الوظائف عندما ترجع.

كان أبي رحمه الله يذهب إلى حلب ليجلب لوازمنا وكان يأخذني معه وكنت أفرح كثيراً ولا أنام ليلتها. كانت تلك أيام عيد بالنسبة لي. كان يسألني عن لوازمي ويشتري لي صندويشة أو شعيبية أو قطعة حلويات. كنت أفرح كثيراً. كان يعمل حارساً في الفرن. وكان يأتي إلى تركيا، إلى عنتاب وكلّس، ليجلب الموالح ويتاجر بأشياء كهذه. أمضينا أوقاتاً غير ميسورة مادياً لكن لم يكن هناك فقر كالآن والحمد لله رب العالمين. كنا نسهر كلنا في المساء نأكل البزر ونتفرج على التلفزيون بالأبيض والأسود. نذهب للنوم في الساعة الثامنة والنصف. نستيقظ في السادسة صباحاً ونفطر. يذهب والدي إلى السوق ليحضر لوازم الطبخ. كانت طفولتي حلوة جداً. كنت سعيدة مع أهلي.

أتذكر عندما مرضت جدتي. بقيت عندنا أربع سنوات تقريباً وأمي تهتم بها، تحملها وتلبسها وتغسلها وكانت شابة قوية في ذلك الوقت. كنت أدخل معها وأساعدها في حمّام "نانتي". وعندما يأتي أبي يعطيني ليرة ورقية فأشعر كأنه العيد. كنا نشتري بفرنك ونصف أو فرنكين، أتذكر أيام القروش تلك الفترة. كان أبي يعطيني ليرة ورق ويشتري لجدتي سندويشة كباب بليرتين ويطعمها إياها. لم يكن معه ما يكفي لنا جميعاً ولا حتى لأمي وهي حامل فكان يشتري لجدتي فقط. في ذلك الوقت كانت قيمة الليرتين كبيرة. أتذكر أنها كانت تجلس تحت الشجرة ويأتي أبي ويطعمها. كان يقول إن دورنا سيأتي عندما يرزقه الله.

أيضاً كانت جدتي أم أمي تحبني كثيراً وتقول لي: "تعي اقعدي جنبي... إنتي دائماً عم تشتغلي... إنتي ضعفانة... إيديكي هيك صايرة". كانت تقول لأمي: "يا بنتي لا تتعبيا" فتردّ أمي إنها لا تتعبني. لكن أنا كنت لا أقدر أن أرتاح دون فعل شيء. أحب تغيير ديكور البيت، كل يومين أو ثلاثة كنت أغيّره. لا أحب أن يبقى كل شيء في مكانه لمدة طويلة، وحتى الآن أفعل الشيء نفسه. بعدها صرت أتسلّى بالتطريز؛ طرزت كلمة الله ومحمد، طرزت شكل وردة وعصفور بالخرز.

عندما صار عمري ستة عشر عاماً خُطبت لابن خالتي وأخذوني إلى حلب. طبعاً هناك فرق بين الريف والمدينة، يعني في حلب هناك سينما وحديقة عامة لكني لم أعرفهم. بقيت كما أنا عاقلة وخدومة ومطيعة. أهل زوجي لا يخرجون في مشاوير كغيرهم، ولم نكن أنا وزوجي نخرج إلى الحدائق أو المشاويرالا بالمناسبات.

كنا نعيش مع عائلة زوجي. في ذلك الوقت كل المتزوجات كن يسكن مع أهل الزوج ولم تطلب واحدة أن تسكن وحدها، بالإضافة إلى أن زوجي هو ابن خالتي. كنت لا أعرف معنى الزواج. فرحت بالذهب وفرحت بالفستان، هذا ما أسعدني. لم أكن مرتاحة لكني اعتدت الحياة هكذا. أنجبت أولادي مباشرة؛ حملت وأنجبت ابنتي، وبعدها البنت الثانية، وبعدهما صبي، وهكذا تلاحق الأطفال كنا مجتمع بسيط و مترابط أسرياً لا يوجد غش ولا خداع فقد تعلمت من خالتي التي هي حماتي أيضاً معنى الحياة والاحترام والصبر والتضحية وهكذا استمرت حياتي ومرت السنين والأيام وقد سكنوا أهلي بحلب وبدأت الحياة تحلو شيئاً فشيئاً وكنت أزورهم ويزوروني كل فترة.

بعد ذلك توفيت حماتي وتوفي عمي ولم يبق عندنا أحد. صار البيت للورثة ولم يقبل إخوة زوجي وأخواته أن نبقى فيه وأرادوا توزيع الحصص. باعوه واستأجرنا بيتاً وحدنا. كان عندي خمس بنات وحملت وأنجبت صبياً. كبرت بناتي قليلاً ورزقني الله صبياً فتغيرت حياتي قليلاً. أحسست أنني صرت مسؤولة عن عائلتي ونفسي ولم يعد أحد يتدخل بنا. يعني سبحان الله عندما بدأت أرتاح فُقد زوجي بعد سنة ونصف.

كان يعمل في الرسم، يرسم لوحات وديكورات لكن عمله كان قليلاً ورزقه قليل. صار يشتغل في مكتب عقاري، "دلّال" أراضي. ومع ذلك كان إذا أتاه عمل في الرسم يرسم على النحاس مثلاً، لكن هذا كان قليلاً ما يحدث.

في أحد الأيام كنا أنا وهو نشرب القهوة في الصباح فطرق رجل الباب وقال لزوجي: "أبو عبدو بعتنا لعندك تروح تفرجينا الأرض". بينما كان يلبس ليذهب مع الرجل قلت له إنني لست مرتاحة لذهابه. خرج إلى الباب وعاد فوراً وقال: "بجوز أتأخر. إذا تأخرت خبّري عني". رأى أن أشكالهم مثل أشكال من يعملون في الدولة مع أنهم يلبسون لباساً مدنياً.

كان وقتها موعد انتهاء دوام المدارس في الساعة الحادية عشر والنصف. وعند عودة بناتي قلن لي: "ماما قال بابا طلعوا معو رجال بطول الباب ماسكينو وحطوه بالسيارة". أتى المساء ولم يرجع. لم تكن هناك هواتف فأخذت سيارة أجرة وذهبت أنا وأولادي كلهم إلى بيت أهلي لأخبرهم. ذهبوا إلى أكثر من فرع وكلهم يقولون إن زوجي ليس عندهم. ذهبنا إلى أصحاب المكتب لنسأل عن الذين أتوا لرؤية الأرض فقالوا إن صاحب المكتب أغلقه وسافر إلى دبي.

تحطمت نفسيتي جداً وصرت في أسفل السافلين. كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وعمر زوجي ثلاثون أو إحدى وثلاثون سنة. عندما راح كنت ألبس قميص نوم قطني فبقيت ألبسه ستة شهور، أغسله وألبسه. لم أعد أستطيع الوقوف، كلما وقفت كنت أسقط. كان أولادي صغاراً وفي حاجة إلى اهتمام وطعام وشرب. حرمت نفسي وحرمتهم حتى من الأكل الشهي. صارت حالتي النفسية سيئة جداً. ولم أكن أرغب بالخروج من البيت ولا باستقبال أحد.

بعد ثلاث سنوات عرفنا أين هو. عندما أخذوا زوجي كان عمر ابني شهرين، وبنت عمرها سنة، وبنت سنتين، وبنت ثلاث سنين، والبنات الأكبر واحدة في السابعة وواحدة في التاسعة. كان يجب أن نسجل الثلاثة الصغار في الدفاتر الرسمية، ومنهم من يجب أن نسجله في المدرسة. ذهب أخي إلى اعزاز ليستخرج لي بياناً عائلياً وإخراج قيد وأوراقاً كهذه فقالوا له إن زوجي محكوم لخمس عشرة سنة وعلمنا أنه في سجن صيدنايا.

ذهبنا بعدها إلى دمشق لأقدم طلباً للزيارة. ساعدني بعض الأشخاص وعلموني كيف أتصرف. دخلت إلى مكتب الضابط في القابون العسكري في الشام وقلت له إنني أريد كرت زيارة فقال: "إي تفضلي". قلت له: "بس ليش كل شهر مرة؟" فقال: "احمدي ربك واشكريه، غيرك ما في زيارة بس جوزك ما طلع عليه إثبات". قلت له: "ما عليه إثبات وينحكم خمستعش سنة؟" فقال: "ما شغلتك تناقشيني".

بعدها ذهبت إلى صيدنايا في الجبال خارج الشام. المنظر مرعب، مرعب. عساكر وبواريد ودبابات. أنا أخاف من خيالي فكيف إذا رأيت هذه المناظر. كل واحد منهم عملاق بحجم الباب. كلهم يفتشون ويعطون الأوامر: قفي على اليمين، لا تمشي من هنا، لا تلتفتي إلى هناك. يجب أن يكون الكل على الصراط المستقيم. كان أولادي معي وكانوا أطفالاً. كنت أحمل أغراضاً وطلبت من العسكري أن يحمل معي فقال: "ممنوع خالتي. لا تحكي معي ولا كلمة. خليكي ع إيدك اليمين ولا تتلفتي ولا تتطلعي". وصلت وجلسنا في القاعة. مدة الزيارة عشر دقائق فقط، ومشواري من حلب للشام استغرق ليلة على الطريق في الباص. عندما جاء زوجي لم أتكلم ولا كلمة. فقط رأيته من بين الشبك. لم أقدر أن أنطق بأي حرف ولا حتى "مرحبا". بقيت صامتة لأربعة أيام. كان يسألني وأنا لا أتكلم، أبكي فقط. وانتهت الزيارة.

صار الأولاد يسألونه لماذا هو هنا وماذا يفعل في هذا المكان، وهو يقول لهم إنه سيرجع. قالوا له: "بابا شو هاد؟ حبس؟" فأجابهم: "لا بابا، أنا مسافر ورح إجي". قالوا: "بابا ليش إنت بقلب القفص؟". سألني عني، عن وضعنا، ولم أقدر أن أجيبه. بقيت على هذه الحال أكثر من سنة، كلما أردت أن أجيبه أشعر بغصة ولا يخرج الحكي مني. صرت أزوره مرة كل شهر، أستدين وأذهب.

صرنا نذهب أنا وإخوته، كان مسموحاً لنا نحن فقط أن نزوره. سألوه: "إنت شو صار فيك؟ فقال لهم: "أنا مو عرفان، والله مو عرفان ليش أنا هون!". ونحن أيضاً لم نعرف. كل ما عرفناه أن تهمته هي كتم معلومات. لم يكن يستطيع أن يتكلم براحة أبداً؛ فالعساكر يحيطون بنا من كل الجهات. لم يتجرأ أن يتكلم. كان يقول: "الحمد لله مبسوطين وعايشين وما ناقصنا غير شوفتكن. بس إنتو انتبهو على حالكن. أنا ما فيني شي لا ينشغل بالكن".

كان قد تغير كثيراً، مائة وخمسين درجة. كان منظره مثل الهيكل العظمي؛ دون أسنان، شعره مثل الليفة البيضاء، يلبس نظارة، وأصيب بمرض السكري. كان في الثلاثينات من عمره ومع هذا كان بلا أسنان كأنه في التسعين! وهذا ما صدمني كثيراً. كنت أبكي طوال الطريق؛ أذهب باكية وأرجع باكية. لم أكن آخذ أولادي معي في كل زيارة. ستة ولم أقدر على مصروف السفر. كنت آخذ معي اثنين وأترك الباقي في البيت. أطبخ لهم وأؤمّن الخبز. كنت أستودعهم عند رب العالمين، وبجانبي جارة أطلب منها أن تأتي إليهم لتتفقدهم. كنت أستيقظ في الساعة الثالثة فجراً، فأركب تاكسياً من البيت إلى الكراج لآخذ الباص إلى الشام. بعد وصولي إلى كراج الشام كنت أركب السرفيس إلى صيدنايا وأزور زوجي، عشر دقائق وتنتهي الزيارة. لأعود بالسرفيس إلى الكراج وبعدها إلى حلب فأصل حوالي التاسعة أو العاشرة ليلاً.

كان أهلي يساعدونني مالياً. لم يقبلوا أن أخرج لأعمل ولا أن أعمل في البيت مثل شغل الخرز أو هذه الأشياء، فقد كانوا يعرفون أنني لم أعد أرى جيداً منذ ذهاب زوجي. كنت أحياناً لا أميز الأشياء حتى لو كانت أمامي. فقدت ذاكرتي. فقدت نظري. صار أهلي يصرفون عليّ ويجلبون الأكل والشرب. في موسم "المونة"، في العيد، في رمضان، في بداية المدارس، كانوا دائماً يساعدونني. طلبوا ألا أجلب شيئاً للبيت وأن أهتم بأولادي فقط، فصرت أربّي الأولاد وأدرّسهم. كانت ماما تقول لي: "رح يطلع بإذن الله، وإن شا الله رح تشوفيه وموجود. هو بس حبل الدولة طويل يا ماما معلش". كنت أنتظر المناسبات مثل ستة تشرين ورأس السنة وغيرها، كانوا يقولون إن السجناء سيخرجون فكنت أفرح وأتفاءل وأقول ربما سيخرج في هذه المناسبات، ربما في بداية الشهر القادم.

كانوا يقولون إنني يجب أن أخبر زوجي بما يحدث معنا لكني كنت أرفض؛ لا أريد أن أزيد همومه. لمن سيشكو قهره وهمّه وهو في القفص؟ كنت أقول له: "مكيفين وعايشين أحلى عيشة". في الحقيقة لم يمر عليّ عيد إلا وبكيت. يأتي رمضان فأبكي، تبدأ المدارس فأبكي. يقول لي أولادي إن كل أولاد الجيران مع آبائهم، وأولاد إخوتي يخرجون مع آبائهم. حُرمت بناتي من حنان الأب ولا زلن محرومات. كبرن وتزوجن وأصبح عندهن أولاد لكن حرمانهن من رؤية أبيهن بقي غصة في قلوبهن. عانيت مع أولادي كثيراً، كسروا ظهري.

كبرت الأولى والثانية وصار العرسان يتقدمون إليهما. كان والدي رحمه الله ما يزال موجوداً فأخبرته. سأل عن العرسان وعن عائلاتهم وتمت الخطبة و"صار النصيب". تزوجت بناتي؛ الأولى والثانية ثم الثالثة، أما الرابعة والخامسة فتزوجن بعد وقوع الأحداث. صارت كل منهن في بيت زوجها؛ ابنتان في سوريا وابنتان في اسطنبول، وابنة هنا في عنتاب. واحدة منهن مريضة بالسرطان. هي الكبيرة مدللة أبيها.

ظللنا نزوره حتى حدوث استعصاء في سجن صيدنايا ومنع الزيارات. ثم أعادوها بعد سنتين. لم نكن نتجرأ أن نسأله عن أي شيء، كنت أطمئن عليه فقط ولم نستطع معرفة شيء مما حدث. بقيت أزوره حتى بداية الأحداث. في 2011 نقلوهم إلى السجن المركزي بحلب وقالوا إننا يمكن أن نقدّم ورقة إخلاء سبيل له وصرنا نعمل على ذلك. بعدها سمحوا لنا بزيارة خاصة كل يومي أحد وخميس. كانوا يعدوننا كل مرة أنه سيخرج، لكنهم نقلوهم فجأة بعد حصار السجن المركزي. ومنذ ذلك الوقت، من سبع سنوات، لا نعرف عنه شيئاً.
ظلوا يتلاعبون بنا حتى صارت الأحداث في حلب، بعد أن كانت بعيدة وحلب ما تزال هادئة. بعدها حاصر الجيش الحر السجن. كان يريد إخراج المساجين لكن النظام قصف السجن بالطيران وأحرقه. يعني عندما لم يقدروا عليهم دمروا السجن وما حوله وقتلوا المساجين، قُتل ستمائة سجين ودفنوا داخل السجن. كان يتصل بنا لكنه اختفى في الليلة التي أخذوهم فيها. اتصل بي في الساعة التاسعة وقال لي: "هلأ النظام رح ينقلنا بس لوين ما بعرف، وبدن ياخدو منا التليفونات".

في بداية الأحداث كنت أسكن في منطقة الهلُّك بمدينة حلب. كنا نختبئ في فرن في الأسفل أوقات القصف ونعود إلى البيت عندما يهدأ. بعدها نزل برميل مقابل بنايتي وتأذى بيتي كثيراً؛ انكسر الزجاج وسقطت "البرندا" ودرج البناية. صعد الرجال لإنقاذنا. نزحنا إلى بيت أهل زوج ابنتي في حي بعيدين المجاور، كان عندهم مكان مثل القبو وكنا نختبئ فيه. في هذه الأثناء كان زوجي يكلّمنا من السجن ويطلب مني الذهاب إلى تركيا. قلت له إنني لن أسافر طالما هو مسجون، وإن التحرك صعب تحت كل هذا القصف، لا نستطيع الخروج.

كنا نذهب إلى السوق مضطرين. في إحدى المرات ذهبت إلى سوق بعيدين لشراء الخضار وبينما الناس يشترون سقط صاروخ وقُتل رجل وامرأة بجانبي. ومع ذلك كنا نخرج ونشتري تحت القصف. ثم لم يتبق ما نأكله وصرنا نسلق المعكرونة بالماء فلم يعد هناك زيت أو سمن.

باعونا خبزاً بداخله زجاج أو عيدان، كنا نخرجها ونأكل. أحضرنا طحيناً وخبزنا على الغاز، وعندما لم يعد الغاز موجوداً خبزنا على الحطب. لم يعد هناك كهرباء ولا ماء. صرنا نذهب لنملأ "بيدونات" الماء من حنفية في الجامع. بعد بعيدين ذهبنا إلى مساكن هنانو حيث تسكن أختي. عند وصولنا شاهدنا برميلاً يسقط، وكنا ننزل ونختبئ في القبو عند مدخل البناية.

نزحت أختي بعدها إلى الأشرفية ولم أذهب معهم. كل واحد منا صار في مكان ولم أعرف شيئاً عنهم. تقطعت الطرقات وانقطع النت وكل وسائل الاتصال. كان ابني وابنتاي معي، لكني لم أعرف عن بناتي المتزوجات شيئاً فكل واحدة في مكان. بعد أن هُدم بيتي هُدم بيت ابنتي المريضة. وغادرت ابنتي الثانية مع أهل زوجها إلى قرية لا أعرف اسمها. يعني صار الكل يريدون النجاة وانقطعت الأخبار.

بعدها صاروا يضربون صواريخ أرض أرض. طيب هذه الصواريخ تنزل على من؟ طالما أنهم يريدون ضرب الجيش الحر فليذهبوا ويحاربوه وجهاً لوجه. لكنهم كانوا يضربون البيوت والمباني والأسواق والأفران. رأيت بعيني الأشلاء على الأرض. كان كثير منهم أطفال تفتت أجسامهم. كان النظام يضرب الشعب.

كان خروجنا من البيت صعباً جداً، بكينا وتشردنا. بقينا مدة طويلة حتى لم نعد قادرين على البقاء لحظة واحدة، فالقصف استمر ليلاً نهاراً. كنا ننام ونظن أننا لن نستيقظ. "قد ما ولادي عقلن ولد وأنا نفس الشي" صرنا نضع المخدات فوق رؤوسنا لنحميها إذا وقع السقف. هكذا كانوا يعتقدون وكنت أوافقهم. أو كنا نختبئ تحت الدرج. أمضينا هذه الفترة في حلب حتى دخلت دولة ثانية، الدولة الإسلامية التي حاصرت المنطقة، وعند دخولها هربنا.

أتيت إلى اعزاز يومها وذهبت إلى بيت أهلي فلم أجدهم. حزنت وبكيت كثيراً. كانت اعزاز غابة أشباح، مدمرة بكاملها بالبراميل. ذهبت إلى بيوت أقاربي وكانت مهجورة أيضاً. لم يكن هناك أحد أبداً. اعزاز كلها فارغة، هرب أهلها إلى البراري. لم أعرف مكان أهلي لأذهب إليهم، فلم تكن هناك شبكة ولا تليفونات. كانوا في مخيم بباب السلامة كما عرفت بعد ذلك بمدة. كنت أستطيع أن أراهم خارج المخيم. ممنوع أن أزورهم وممنوع أن أنضم إليهم. حاولت أمي أن تدخلنا لكنهم لم يقبلوا. كانوا قد أحضروهم عندما صار القصف، ذهبت سيارات الإسعاف وأخذتهم وفتحوا لهم المخيمات فوراً ونزح الناس إليها، أدخلوهم كلهم. ظل أهلي في المخيم سنتين أو ثلاثاً وعندما هدأت الأمور عادوا ورمموا بيوتهم.

عندما لم أجدهم في اعزاز فكرت إلى أين سأذهب أنا وأولادي وليس معي ولا ليرة؟ قلت لصاحب سرفيس إنني أريد أن أذهب إلى تركيا ولكني لا أملك شيئاً فأوصلني إلى باب السلامة دون مقابل. باب السلامة قريب على اعزاز حوالي نصف ساعة. عبرنا باب السلامة وذهبنا إلى كراج كلّس. كانت أخت زوجي تسكن هناك فبقيت عندها، لكن عائلتها كبيرة ومعها زوجتا ابنيها وأولاد بنتها، كان من الصعب أن نظل عندهم. عادة كان البوليس يأتي لمساعدتهم، ولما أحضروا لهم كرتونة معونة قالت لهم: "إجوني هدول من سوريا، مرت أخوي وجوزا بالسجن". فساعدونا وأعطونا شقة في كلّس. كانوا يحضرون لنا الحليب والصمن إلى الباب يومياً ولم أكن أشتري شيئاً. أحبونا كثيراً. لم يكن معي نقود أبداً، لا سوري ولا تركي. صار ابني يعمل، كل يوم بخمس ليرات تركية، يدفع للباص ليرة ونصف في الذهاب وليرة ونصف عند عودته فكان كل ما يبقى معنا ليرتان.

استمر في عمله مدة وبعدها وقع وكسرت رجله فأخذوه إلى عنتاب. كان هناك أشخاص جيدون لم يقبلوا أن يعمل وقالوا إنه يجب أن يدرس. ألوم نفسي حتى الآن لأنني لم أوافق. أتينا إلى عنتاب وصار يعمل عند حلواني وبعدها صار يعمل خياطاً. ومؤخراً صار يعمل في مجال الإنشاءات لكنه أصيب منذ أسبوعين؛ وقعت قطعة خشب على رجله وأصيب بتمزق في الأربطة، وهو الآن في البيت بسبب إصابته.

في البداية عشنا مع ابنتي الوسطى وصهري. عندها خمسة أطفال، أربع بنات وصبي. بقينا معاً لوقت طويل. بعدها تزوجت ابنتاي اللتان كانتا معي وذهبتا مع زوجيهما إلى سوريا، فسكنت مع ابني وكنّتي.

يأتي أول الشهر سريعاً ويكون صاحب البيت بانتظار هذه اللحظة ولا يمهلنا أبداً، لا إلى الغد أو حتى إلى المساء. يدق علينا ومعه الفواتير ويطلب أن ندفع فوراً. هذا الشيء يؤثر علينا. وطبعاً الغربة بعيداً عن ابنتيّ الأصغر في سوريا وعن ابنتيّ الأكبر في اسطنبول. أتمنى أن تأتي ابنتي المريضة إلى هنا لكننا لا نستطيع أن نستأجر لها بيتاً.

صرنا نحضر جلسات دعم نفسي في مركز العائلة. نتلقى هنا دعماً نفسياً يسهّل علينا الحياة قليلاً. ساعدونا كثيراً في المركز. عندما أسمع قصص غيري تهون عليّ قصتي، وهم أيضاً عندما يسمعون قصتي تهون عليهم قصصهم. هنا فُخرج كل ما أخبئه داخلي، أحكي عن حياتي وبيتي وعن ظروفي بشكل عام. تحسنت وارتحت. سابقاً كانت نفسيتي سيئة جداً. كانت محطمة لكن بعد أن صرت آتي إلى هنا ارتحت. أثق بكم وأتكلم عندكم عن كل همومي. أشكركم جميعكم لدعمكم ووقوفكم إلى جانبي وإعطائي الأمل. كنت لا أحب أن أخرج من البيت وبسببكم صرت أحب الخروج وصار عندي أمل. آتي إلى مواعيدي معكم برغبة كبيرة ولا أتأخر أبداً. أشكركم كثيراً.

ينقصني أن أطمئن على زوجي، أن أتكلم معه بالتليفون وأطمئن إلى أنه ما زال حيّاً لأرتاح. أريد أن تتحقق العدالة برجوع زوجي وكل مظلوم. ليس زوجي فقط بل هناك الكثير؛ منهم نساء وأطفال ورجال. أريد أن تتحقق العدالة وأن يعود لكل إنسان حقه. النظام من شردنا وظلمنا وهو من فعل بنا كل هذا. لن يذهب الدم هدراً؛ دم كل إنسان راح أو صار مفقوداً. استشهد ابن أختي وابن أخي، مات كثيرون من أقاربي، وأتمنى ألا يذهب دمهم هدراً. إن شاء الله رب العالمين سيأخذ حقهم وسيحاكمون المجرمين ويحاسبونهم. أتمنى أن يكون زوجي معي، أن نكون كلنا مجتمعين ونعود إلى بلدنا وتتحسن أحوالنا لكن هذا صعب، صعب جداً، صعب أن تعود البلد وأن يتغير النظام.

ملحق

خرج زوجي!

كان يوم أحد في الساعة السادسة وكنت عند ابنتي في إسطنبول فاتصل بي شقيقه فيديو. كانت عندي ضيفة فوضعت التليفون على الصامت وأكملت كلامي معها وقلت في نفسي إنني سأتصل به في ما بعد. بعدها اتصل بالكل مكالمة جماعية وعندما فتحت تلفوني رأيت زوجي. عندما رأيته فجأة لم أقدر أن أتكلم، اختفى صوتي من الصدمة. خرج من كفر سوسة في الشام وذهب إلى الكراج وشرح وضعه لسائق باص وسافر إلى حلب. وهناك أمّن له سائق الباص وضعه في تاكسي، وأعطوه مبلغاً. كان سائق التاكسي سعيداً جداً عندما عرف أن زوجي خرج بعد كل هذا الوقت. لم يأخذ منه شيئاً وأخذه إلى عنوان أهله في حلب. صاروا يصرخون ويركضون على زوجي.

بعدها خرج إلى قريتنا بانتظار أن يصل إلى هنا. لم يخبرني بموعد مجيئه. كل يوم يقول لي إنه سيأتي غداً لكنه لم يقدر. في أحد الأيام كان عندي موعد مع الدكتورة وكان ابني سيأخذني لأنني لا أعرف اللغة التركية. اتصلت به ونزلت إلى زاوية الشارع. فجأة وقفت سيارة أمامنا وفتح بابها ونزل أبو الحسن. لم أقدر أن أنطق كلمة واحدة عندما رأيته. ابنتي المريضة لم تقدر أن تتحرك. ذهبنا إلى البيت وركض الأولاد والأحفاد إليه. أحست بناتي أنهن ملكن الدنيا بما فيها عندما رأين أباهن. حفيده سعيد جداً "عم ينط نط عالأرض". منذ شهر وخالد، الذي أسميته على اسم جده، ينادي: "جدو" رغم أنه لا يملك جداً، فأبو زوجة ابنتي متوفٍ، وليس هناك أحد في البيت إلا أنا وابنتي. ومع ذلك منذ شهر وهو يقول "جدو". كنا نسأل أنفسنا من أين تعلم هذه الكلمة. عندما أحضرنا زوجي إلى البيت استقبله خالد وهو يرقص ويقفز ويقول: جدو.. جدو.

مهما حاولت وصف اللقاء يبقى الوصف قليلاً، ومهما حكيت يظل الكلام غير الواقع. مشاعر فرح لا توصف. كان عمر ابني شهرين والآن هو شاب وأب لولدين، بنتي كانت في التاسعة وعمرها الآن تجاوز الثلاثين. لا يزال زوجي لا يميز أولاده، تركهم أطفالاً وخرج وهم متزوجون وعندهم أولاد. كبرت عائلتنا وصار عندنا ثلاثون حفيداً. يعني صار جداً وأحفاده بطوله. ما نزال غير مصدقين أنه بيننا. وهو أيضاً يسأل نفسه إذا كان بيننا فعلاً.

لا يريد أن يتكلم في موضوع سجنه أبداً. سألته حفيدته منذ أيام ماذا كانوا يطعمونهم في السجن فقال لها: "ما تجيبي سيرة الحبس. أنا هلق حر". رأينا أنه يتضايق من موضوع السجن ولهذا لم نتحدث به إلا إذا هو تكلم بنفسه. وأنا أيضاً لم أخبره حتى الآن كم عانيت، لا يزال مرهقاً وأعصابه مشدودة. منذ أن خرج ونحن مشغولون جداً. لا أجد وقتاً أبداً، لا أنا ولا ابني. نمضي كل وقتنا بين المشفى وبين استقبال الضيوف. لا ننام أكثر من ساعتين. مشاعر الفرح والبكاء كانت قوية ولهذا لا أزال متعبة قليلاً وأريد أن ينتهي التوتر ونرتاح. لكن الحمد لله تجددت حياتي كلها وارتاحت نفسيتي. ارتحنا وأحسسنا بالأمان لأنه موجود. نحن الآن سعداء جداً ولا ينقصنا غير شفاء ابنتي لتكتمل سعادتنا.

وبعد عام من خروج زوجي من المعتقل وبعدما اجتمع مع جميع عائلتي توفيت ابنتي المريضة في السرطان رحمها الله وأسكنها فسيح جناته وتركت أربع أولاد بنتان وصبيان قدر الله وما شاء فعل جلسنا معهم فترة في إسطنبول وثم عدنا إلى غازي عنتاب.

هكذا هي الحياة صبر وقهر وفرح وسعادة كل الألوان فيها ونحن من الصابرين على مقاديرها ((وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)).

دع الأيام تفعل ما تشاء   وطب نفساً اذا حكم القضاء
ولا تجزعن لحوادث الزمن   فما لحوادث الزمان من بقاء

أتمنى أن يخرج كل معتقل. هناك الكثير من المظلومين وأدعو الله أن يطمئن قلوب أهاليهم كما طمأن قلوبنا. أتمنى من كل أم أو زوجة أن تصبر، أن يظل عندهم أمل، وبإذن الله سيأتيهم خبر الإفراج كما حدث معي.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison